شخصيات علمية

من أعلام المغرب في القرن 10 هـ :

القاضي أبو العباس ابن عرضون

للأستاذ عمر الجيدي

تمهيد :

انطلق المسلمون من شبه الجزيرة العربية فاتحين الارض ناشرين الدين والحضارة أينما حلوا ، وكان النجاح حليفهم في جميع فتوحاتهم شرقا وغربا ، ومضوا في طريقهم زاحفين ، لايصدهم صاد ، ولا يقف في طريقهم عائق ، حتى وصلوا جبال البرانس غربا ، يدفعهم ايمانهم القوي ، وحماسهم الديني ، ولم يكونوا فاتحين مارين ، بل كانوا يركزون نفوذهم في كل بلد وطأته اقدامهم . وصارت بلاد المغرب البربري تحت رحمة العرب المسلمين ، فأبدلوا البربرية بالعربية ، والمجوسية واللادينية بالاسلام ، وأصبحت جيوش العرب والبربر موحدة متآخية ، وحدها الاسلام ، فصارت معا لفتح الاندلس ، بعد تثبيت الحكم الاسلامي في شمال افريقيا .

ثم توالت الفتوح بعد ذلك في سائر القبائل التي طالما حاولت ايقاف جيش الفتح عند حده ، غير أن الاسلام كان يظهر مرة ويختفي مرات نتيجة الاحداث والاضطرابات ، وارتداد البرابرة عن الاسلام والتي وصلت اثنتى عشرة مرة ، كما نقل عن ابن أبي زيد القيرواني (1).

وهكذا مضى المسلمون في طريقهم غربا يوسعون رقعة الاسلام ،

---

(1) العبر مجلد 6 ص : 205 .

ناشرين الدين في القلوب ، وملقنين العربية في الملسن ، فاكتمل بذلك الجناح الغربي لدولة الاسلام ، واستوطن ارض البربر خلق كثير من العرب اتخذوها لهم موطنا وسكنا ، فاختلطت دماء هؤلاء بأولئك بالتصاهر والتناسل ، وكان من نتائج هذا الانصهار ، نشوء حضارة اسلامية عظيمة لفتت اليها الانظار ، ونزلت أسر عربية في هذه الاقاليم الجديدة ، كان لها في نشر العلم والمعارف شأن كبير ، بما أنجبته من علماء ومفكرين ، ومن هذه الاسر : أسرة بني عرضون

الاســـرة :

بيت هذه الاسرة ارفع بيت في قبيلة بني زجل (2) وأعظمه وأقدمه .

وسلف هذا البيت وخلفه ، قدوة العلماء والفضلاء ، تقدموا على أئمة زمانهم ، وقد برز من البيت العرضوني أكثر من أربعة عشر عالما ، ما بين محدث ، وفقيه ، وأديب ، يشار اليهم بالبنان ، جمعوا بذلك بين شرف الاصل ، وشرف العلم ، وزكوا ذلك بالاستقامة والصلاح .

وأول من نعرفه من هذه الاسرة : أبو الحجاج يوسف بن عرضون الزجلي حسبما دونه (صاحب الترجمة) في بعض كتبه ، وان كنا نعرف أنهم يرفعون نسبهم الى محمد زجل القادم من المشرق مع موسى بن نصير في حدود 90 هـ ، والذي نزل بدوره بقبيلة بني زجل ، وهذا ثابت في كتبهم ، وعند من ترجم لهم

فهي على هذا الاساس ، أسرة قرشية أصلا ، مغربية منشأ واستقرارا.

وقد بدأ نجم هذه الاسرة يلمع في عهد الوطاسيين ، وأدركوا شهرتهم

(2) قبيلة بني زجل : هي احدى القبائل الغمارية التسع تجاور مدينة شفشاون شرقا قبيلة جبلية صخرية كثيرة التضاريس مساحتها حوالي 40،000 كلم مربع ومعدل السكان بها كان في بداية هذا القرن يصل ما بين 30 ـ 70 في كلم مربع . انظر مجلة الاتحاد : السنة : 4 عدد : 3 دجنبر 1929 كانت تصدر بتطوان وانظر الكلام مفصلا عن هذه القبيلة في كتاب ابن عرضون الكبير ص : 74 .

(3) ثمرة انسي للحوات ص : 53 مخطوط خ . ع . بالرباط رقم 1264 ك .

العلمية على عهد السعديين اذ في هذا العصر طار صيتهم ، وغدوا في هذه القبيلة ـ بل في المنطقة كلها ـ معروفين مشهورين ، يتصدرون أعلى المناصب ، وأشرف الوظائف ، وأصبحت دارهم قبلة يؤمها طلاب العلم ، وكعبة يحج اليها أهل الفضل والصلاح .

وأول من نعرفه في هذه الاسرة تولى بعض المناصب ، هو أبو علي الحسن ابن عرضون ـ والد المتحدث عنه ـ اذ كان مدرسا وخطيبا ومفتيا يقصده الناس من كل صوب ، يستفتونه في الاحكام الشرعية .

أفصح عن هذا حفيده أبو العباس أحمد بن محمد ابن عرضون حيث ذكر أنه كان يلتجأ اليه في النوازل) (4) . ثم ولداه القاضيان ابو العباس أحمد ، صاحب الترجمة ـ وشقيقه أبو عبد الله محمد اللذان توليا خطة القضاء بشفشاون ثم خلفهما أبناؤهما في نفس المنصب ، الى زمن متأخر في هذه المدينة .

ويبدو أن نجم هذه الاسرة أفل بأفول الدولة السعدية ، اذ لم نعد نقرأ لاحدهم انتاجا . ولا نرى اسمه يتردد في كتاب ، الا أن يكون ذلك قد اندثر لفقد التدوين .

وعلى كل حال ، فلم يكد يمضي النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري حتى لم نعد نعثر لبني عرضون على صدى في العلم ، أو في السياسة ، ونظن أن زعامة هذه الاسرة انتهت بوفاة القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عرضون (الصغير) وان كان من الثابت أن شخصا من هذه الاسرة ، واسمه جلال الدين عمر ابن عرضون استمر بعد هذه الفترة (5) ولكن لا نعرفه قاضيا ولا مدرسا ، على الرغم من أن الشريف العلمي ينعته بالفقيه الاجل» (6) .

ولا نجد أثرا لهذه الاسرة في شفشاون بعد هذا العصر ، ولا ندري هل

---

(4) ناصر الحكام مخطوط خاص .

(5) وثيقة خاصة في عائلات شفشاونية .

(6) نفس الوثيقة .

انقرضت أم أنها أعقبت ، واتخذ عقبها أسماء أخرى تنوسي معها الاسم الاصلي (7) .

النشأة والمكان :

على أن الذي استأثر بالاهتمام في هذه الاسرة ، هو واسطة عقدها ، وقيدوم رجالها ، أبو العباس أحمد بن الحسن الذي كان من ألمع فقهاء القرن 10 هـ ، واسمه الكامل هو : أحمد بن الحسن بن يوسف بن محمد بن عمر بن يحيى بن عمر الشهير بابن عرضون الزجلي الموسوي الصالحي القرشي ، وكنيته : أبو العباس ، يتصل نسبه بمحمد زجل ـ المتقدم الذكر ـ لا نعرف بالضبط ، السنة التي ولد فيها ابن عرضون ، غير أن الذي يعطيه الحزر وبعض الاستنتاجات أنه ولد عام 948 هـ (8) .

أما مكان ولادته فهو قبيلة بني زجل ، ومدشرهم الاصلي (أدلدال) بنفس القبيلة ، ولكن أباه انتقل الى (تلنبوط) القرية التي تبعد بحوالي 30 كلمترا عن شفشاون ، وفيها نشأ ، وفيها كان بيته وأفراد أسرته ، اذ كان تقلد بها منصب الخطابة والتدريس في مسجد الشيخ عبد الله الهبطي، ولاتزال رسوم داره ماثلة الى الان بهذه القرية .

والمعلومات لدينا قليلة عن نشأته الاولى وتطوره وتنقلاته ..

حياته العلمية : لا نعرف الكثير عن حياته العلمية ، فكتب التراجم لم تهتم ـ كعادتها ـ بعلماء الجبال ، وحتى التي عدته من مترجميها لم تتوسع في ترجمته حتى تذكر لنا شيئا من هذا القبيل.

على أننا نستطيع أن نحدد شيئا من مراحل حياته التعليمية من خلال ما خلفه لنا من آثار ، وفي ذلك ما ينير لنا بعض الطريق للتعرف على هذا الجانب من حياته ، فقد حدثنا في كتابه (المقنع)(9) أنه تلقى تعليمه

---

(7) انظر الكلام عن هذه الاسرة مفصلا في كتاب : ابن عرضون الكبير حياته وآثاره ابتداء من ص 81 مطبوع على « ستانسيل » يوجد بخزانة دار الحديث الحسنية .

(8) ابن عرضون الكبير ص : 118 .

(9) مقنع المحتاج في آداب الازواج ص : 279 مخطوط خ . ع . بالرباط رقم 1026 ك . .

الاولي عن أسرته ، وبالاخص والده وعمه ، اذ كان أبوه من أعيان بلده ، ومن كبار علمائها ، جماعا للكتب ، ومؤلفا لها ، ويروي عنه أنه كان يحفظه الشعر ، ويحببه اليه ، وهو لايزال يقرأ القرآن في بلدته الصغيرة ، ومن هنا نذهب الى أن الفضل في توجيهه نحو الحياة العلمية يرجع بالدرجة الاولى الى والده الذي لمس فيه الاستعداد الطبيعي للدراسة ، ووجد لديه ميلا فطريا نحو العلم والمعرفة ، فشجعه على هذه الرغبة ، وهكذا قضى طفولته في قريته قبل أن ينتقل الى فاس ، ويمكننا أن نقسم حياته الدراسية الى مرحلتين :

أ ـ **المرحلة الاولى** : في بلدته ، وقد كان يتلقى في هذه الفترة العلم عن جمع من أسرته ، وعن شيوخ بلده ، وقد عدد منهم بعض من استفاد منه قبل أن يبدأ الرحلة في طلب العلم خارج بلدته .

ب ـ **المرحلة الثانية** : في فاس ، حيث اشتد عوده ، ونضجت ثقافته، واكتمل علمه ، ودعم هذا وذاك بأسانيد أخذها عن شيوخ عصره ، الذين لقيهم ، ودرس عليهم ، ولازمهم وأخذ عنهم ، وألم بشيء من حياتهم ، وأشار الى نبذ منها في مراسلاته مع بعضهم أيام ولايته القضاء بشفشاون حيث نشر علمه ، وطبق حكمه (10) .

واذا جمعنا المرحلة الاولى مع الثانية ، تكونت لدينا فترة زمنية مهمة قضاها كلها في البحث والتحصيل ، ولا نعرف بالضبط متى وصل الى فاس ولكننا نعرف الفترة التي درس فيها من خلال الشيوخ الذين درس عليهم ، ونرجح ان يكون ذلك تم في العقد السابع من القرن 10 هـ اذ في هذه الفترة كان سنه هو السن الطبيعي لتلقي العلم خارج البلد ـ عادة ـ وفي هذه الفترة بالذات كانت فاس تعج بالعلماء الكبار كما كانت من اهم مراكز العلم والمعرفة في الغرب الاسلامي يؤمها طلاب العلم من مختلف بقاع العالم ...

مشايخه : حاولت جمع شيوخه ممن ذكرهم هو في بعض

---

(10) نوازل العلمي ج 1 ص : 5 م : وثمرة انسي ص : 53 .

مؤلفاته : أو نسبهم له غيره . فاتضح لي من خلال ذلك أنهم أقسام :

أ ـ شيوخه من بلده .

ب ـ شيوخ أخذ عنهم بفاس .

حـ ـ شيوخ ذكرهم دون ان يحدد المكان الذي اخذ عنهم فيه ، ولانعرف أنهم تصدوا للتدريس بفاس أو نعثر لهم على ترجمة توضح محل اقامتهم وسنذكرهم حسب هذا الترتيب ، بادئين بالقسم الاول ، ويأتي في مقدمة هذا الفريق :

1 ـ والده الحسن ابن عرضون(11) وقد صرح به كشيخ له في كتابه مختصر مقنع المحتاج عندما تحدث عن نظام التدريس في بداية حياته التعليمية (12) .

2 ـ عمه أبو حفص عمر بن عرضون(13) صرح به في نفس المصدر السابق وفي نفس الموضوع (14) .

3 ـ أبو محمد عبد الله الهبطي(15) وهذا الشيخ يعتبر من أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم ، وقد كان ابن عرضون معجبا به كثيرا ومتأثرا به بالغ التأثر ، بحيث لا نجده يذكره في كتاباته الا ويقرنه ـ في الغالب ـ بقوله (قال شيخنا وبركتنا ومصلح بلدنا) وغيرها من الاوصاف التي طالما أضفاها عليه ، وهو متأثر به في بعض نظرياته وأفكاره واتجاهاته ، وان شئت قلت انه كان واقعا تحت تأثيره ، دون أن نغفل انه كان

---

(11) ترجمته في .. ابن عرضون ألكبير حياته وآثاره ص : 88 .

(12) مخطوط خ . ع . تطوان رقم 593 .

(13) ترجمته في ابن عرضون الكبير ص : 91 .

(14) المصدر السابق .

(15) انظر ترجمة الهبطي مفصلة في دوحة الناشر ص : 7 تحقيق محمد حجي ط . الرباط ، والمعرب الفصيح ، وهي سيرة مفصلة من تاليف ولده ابي عبد الله محمد الصغير (منظومة)

يتضارب معه في بعض الجزئيات النادرة (16) .

4 ـ أبو الربيع سليمان الملولي القرشي الزجلي ، وهذا الشيخ كان له تأثير قوي في ابن عرضون ، كما أن هذا الاخير كان معجبا بـه وبعلمـه وديانته وتقواه ، وللاسف لا نجد له ترجمة وافية ولا حتى مقتضبة الا ما أشار اليه صاحب الترجمة في المقنع حيث يقول في حقه : (هو أستـاذ بلدنا وامـام جيلنـا (17) .

5 ـ أبو الحسن علي الملولي : نجل الشيخ السابق ، وهذا أيضا لا نعثر له على اثر ولم يذكره ابن عرضون ، وانما صرح به استاذنا الجليل الباحث سعيد أعراب وذكر أن ابن عرضون تتلمذ له (18) .

6 ـ أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الوهاب : ذكره مرات فـي كتابـه «مقنـع المحتاج» (19) .

7 ـ أبو القاسم محمد بن عبد الجبار (20) .

8 ـ أبو حفص عمر بن عبد الوهاب الحسني (21)

---

(16) خالفه مثلا في مسألة العوقبـة بالمال وفي بعض القضايا تتصل بالمـرأة ، انظر ص : 137 من ابن عرضون الكبير .

(17) والملولي هذا هو : سليمان بن ابي هلال بن سليمان الزجلي الملولي القرشي الغماري من الاسر العربية الوافدة على المغرب أوائـل الفتح الاسلامي للمغرب والتي استقرت فـي قبيلة بني زجل عالم جليل مقرئ، مفسر كـان داعية عصره كون مع عبد الله الهبطي وابـي القاسم ابن خجو الخلوفي الحساني والحسنبن عرضون ثالوثا لمحاربة الظلم والانحرافـوالفساد في جبال غمارة ، ويذكر صاحـب الترجمـة انه اخذ عنه علوم القرآن وعلم الكلام وهـو يلتقي معه في النسب القرشي له قصيدة تعرف بالسليمانية في القراآت وله رسائل بعث بها الى القبائل مشحونـة بالامـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد هدى الله على يديه امة عظيمة وقطعت بسببه المناكر الشنيعة كمـا يذكر صاحب الترجمة وله قصيدة في مستحدثات غمارة . مقنع المحتـاج ص : 107 مخطوط خ . ع . بالرباط رقم 1026 ك وجريدة الميثاق عدد 48 السنـة 3 مقـال الاستاذ المحقق سعيد اعراب .

(18) جريدة الميثاق عدد : 48 السنـة 3 تصدرها رابطة علماء المغرب .

(19) انظر على سبيل المثـال ص : 114 .

(20) مقنع المحتاج ص : 207 .

(21) المصـدر .

هؤلاء هم بعض شيوخه من بلده ...

ب ـ أما الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم بفـــاس بعـد انتقاله اليها فمنهــــم :

9 ـ ابو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي الشيخ الورع المحدث(22)

10 ـ ابو عبد الله محمد بن قاسم الشهير بالقصار القيسي الفــاسي الفقيه المحدث النسابة (23) .

11 ـ ابو زكرياء يحيى بن محمد السراج الرندي الفاسي الفقيـــه المقدم بفاس ، والامام الخطيب بالقرويين(24) .

12 ـ الشيخ الامام المشارك حامل لواء المذهب القاضي الحميدي(25.

13 ـ أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور الفاسي (25).

14 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمـد بن محمـد بن مجبـر المســاري الفقيه الحافظ .

15 ـ أبو العباس أحمد بن قاسم الغساني المعروف بالقدومي (27) .

ج ـ القـســم الثـالـث :

شيوخ أخذ عنهم ولا نعرف متى وأين وماذا أخذ عنهم ، وهم :

---

(22) انظر ترجمته في : الفكر السامي 103/4 ـ سلوة الانفاس 257/2 ـ شجـرة النور 286 ـ نشر المثاني 212 ط • ف ـ جذوة الاقتباس : 123 ـ الاكليل والتاج ورقـة 52 مخطوط خ • م • بالرباط رقم 1897 ••

(23) نشر المثاني 62 ـ النبوغ المغربي 246/1 ـ التقاط الدرر 69 ـ ازهار البستان لابن عجيبة 48/1 مخطوط خ • م • بالربـاط رقم 3347 ـ الفكر السامي 107/4 خلاصـة الاثر للمحبي 121/4 ـ الاكليل والتاج ورقـة 37 •

(24) شجرة النـور : 294 ـ الاكليـل والتاج ورقة 84 ـ ازهار البستـان 151/1 ـ الفكر السامي 106/4 ـ نشر المثاني 51 ط • ف •

(25) جذوة الاقتبـاس 67/1 ط : دار المنصور ـ النبوغ : 250/1 ـ نيل الابتهـاج ص : 12 مخطوط خ • ع • بالرباط رقم 1975 ـ ازهار البستـان 145/1 ـ الفكـر السامي 103/4 •

(26) انظر الفكر السامي 103/4 •

(27) ازهار البستان 145/1 ـ الاكليل والتاج ورقة 59 ـ نشر المثاني 26 ط • ف •

16 ـ ابو راشد اليدري (28) .

17 ـ ابو يوسيف اليدري (29) .

18 ـ ابو النجاء سالم الغماري (30) .

19 ـ أبو العباس أحمد البعل المصوري (31) .

20 ـ أبو يعقوب اليدري (32) .

وحسبما يبدو من نسب هؤلاء انه أخذ عنهم في بلده ، اذ اليدري نسبة الى قبيلة بني يدر ، وهي قبيلة جبلية تجاور تطوان غربا ، كما أن المصوري نسبة الى قبيلة بني مصور ، وهي قبيلة جبلية ايضا تجاور قبيلة بني يدر المتقدم ذكرها .

أما أبو النجاء سالم الغماري فلا يبعد ان يكون أخذ عنه ببلده ، لكن لا نعلم القبيلة بالضبط .

21 ـ علي بن قاسم التجيبي (33).

22 ـ أبو العباس الحضرمي (34) .

23 ـ البطيوي (35) .

24 ـ أبو العباس أحمد جبرون الملالي (36) .

25 ـ أبو عثمان ذكره هكذا مجردا من التعريف في كتابه المقنع قال : سمعت شيخنا ابا عثمان يقول :

---

(28) الاكليل والتاج ورقة 85 .

(29) رسالة التودد والتحابب مخطوط خ . ع . تطوان رقم : 826

(30) الالماع مخطوط خ . ع . تطوان رقم 593 .

(31) درة الحجال ص : 92 .

(32) هو الفقيه النوازلي الفرضي الحيسوبي الراوية وصفه الكتاني في سلوة الانفاس بامام الفرائض والحساب 318/3 ـ التاج والاكليل ورقة 85 .

(33) حدائق الانوار مخطوط خ . م . بالرباط رقم : 942 .

(34) شرح اسماء الله الحسنى مخطوط خ . م . بالرباط رقم : 5696 .

(35) شجرة النور 286 .

(36) حدائق الانوار مخطوط خ . م . بالباط رقم 942 .

26 ـ الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الحسني ذكر هـذا الشيخ في كتابه (الحدائق) وحلاه بالاوصاف التالية : (وقد تلقيناها من شيخنا الحاج المكرم الشريف المعظم أبي عبد الله محمد بن ولي الله الحاج عبد الله بن عمر ابن عبد الوهاب الحسني)

27 ـ أبو يحيى الشريف (37) .

28 ـ محمد بن علي العلمي الشريف (38) .

مـؤلـفـاتـه :

لا يزال تراث ابن عرضون محجوبا عنا ما دمنا لم نطلع على كل ما كتبه ، ولكنا مع ذلك نقول : ان تراثه كان غنيا متنوعا ومتعدد الجوانب ، وفي مختلف فروع المعرفة ، فقد كان من أنشط مفكري عصره عموما ، وأبناء بلدته خصوصا ، حتى لقد كتب في كثير من فروع الثقافة وترك لنا الكثير من المصنفات ..

وقد أجمع كل من تعرض لذكره ، أو نقل من كتبه ، على وصفه بالعالم المؤلف ، تمييزا له عن بقية أفراد اسرته ـ فيما نرى ـ والظاهرة الغالبة على ابن عرضون في تآليفه ، أنه كان منهجيا مرتب الفكر ، متخير الالفاظ، يحسن استخدامها في موضعها ، ويحسن ترتيبها ، يعرف كيف يضع المقدمات ، وكيف يأتي بالنتائج ، نافرا عن التعقيد والحشو ، يعرف كيف يسير في عرض الموضوع بطريقة منظمة ، وهذه السمة طاغية على كتبه ، فهو يحدد لنفسه المنهاج منذ البداية ، ويبين للقارىء في صدر مؤلفاته جوانب الموضوع الذي سيتعرض له بالبحث ، ويعين خطته في الدراسة ، وينص على الهدف الذي يقصد اليه ...

ومن الملاحظ ان الذين ترجموا له ـ على قصر هذه الترجمة ـ او ذكروه عرضا ، لم يستعرضوا من تآليفه الا النزر اليسير ، وفيهم ـ وهو الاغلب

---

(37) مقنع المحتاج ص : 5 .

(38) المصدر ص : 141 .

ـ من لم يذكر له الا كتابا واحدا وهو (اللائق لمعلم الوثائق) . ولعــل استاذنا الجليل سعيد أعراب هو الذي ذكر اكبر عدد منها (39)

والكثير منهم لا يسمى كتبه ، ولكن يكتفي بالقول : صاحب التآليـف أو العالم المؤلف .. ويثبت الشريف العلمي أن ابن عرضون ترك تقاييـد كثيـرة ...

وأول ما يلفت الانتباه أن كتبه تتجه الى مختلف فـروع المعرفـة ، ولكنها تتركز أساسا على الاسلاميات ، والتاريخ ، ومعظم عناوينها أو كلها مسجوع ، على عادة مؤلفي العصر ..

ولنستعرض ما وصل الينا من كتبه ، وقبل استعراضنا لها نحب أن نصنفها الى ما يلي :

أ ـ مؤلفـات فقهيـة .

ب ـ نبـويـات .

حـ ـ اجتماعـيـات .

ء ـ تاريخيـات .

أ ـ القسم الاول :

1 ـ (اللائق لمعلم الوثائق) طبع على الحـجر مرارا وطبـع عـلى الحروف بتطوان سنة (1355 ـ 1936) بالمطبعة المهدية في جزئين ، وهـذا من أشهر مؤلفاته ينسبه له كل من تعرض لذكره ، كما أن شهرته قامـت على هذا الكـتـاب .

2 ـ الرسالة الشافية في تأبيد تحريم الهاربة ضمن جزءا منهــا الشريف العلمي في نوازله (40) ونسبها اليه ابن اخيه أحمد بن محمد ابن عرضون في كتابه : (ناصر الحكام) .

---

(39) جريدة الميثاق عدد : 50 .

(40) ج 1 ص : 5 م ..

3 ـ شرح منظومة العدة للامام الهبطي ، ذكر ذلك محمد بن عيسى العلمي في شرحه لنفس المنظومة (41) .

4 ـ التمهيد في القضاء : يوجد هذا الكتاب عند احد الخواص بمدينة شفشاون .

5 ـ طرر على الوثائق الجزيرية .

6 ـ مسائل ملقوطة من نوازل مازونة مصور على شريط رقم 6 بخزانة الرباط العامة .

7 ـ شرح رسالة السيوطي في ليلة القدر ، ورد اسمها في مخطوط رقم 331 رقم 82 بمكتبة تطوان العامة .

8 ـ منظومة في آداب الجماع (42) .

9 ـ اجوبة في الفقه (43) .

10 ـ منظومة فى أحكام الميراث (44) .

11 ـ كتاب فيما لابد للعبادة من اعتقاده (45) .

بالاضافة الى فتاويه العديدة المبثوثة في كتب الفقه والنوازل ..

ب ـ نبويات :

12 ـ حدائق الانوار وجلاء القلوب والابصار في الصلاة والسلام على النبي المختار) مخطوط يوجد في كل من خزانة تطوان العامة تحت رقم 875 وخزانة القرويين رقم 317 والخزانة الملكية بالرباط رقم 942 .

13 ـ منظومة في مدح الرسول (ص) سماها قصيدة في خواص النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(41) مخطوط رقم 654 بمكتبة تطوان العامة .

(42) فهرس المكتبة العامة بتطوان رقم 126 .

(43) الجواهر المختارة للزياتي 233/2 مخطوط . خ . ع بالرباط رقم 1698 .

(44) اختفت من خزانة تطوان العامة في السنوات الاخيرة .

(45) مقنع المحتاج ص : 61 .

14 ـ منظومة في التوسل بالرسول (ص) اتينا ببعض ابيات منها في موضع آخر (46) .

15 ـ شرح اسماء الله الحسنى مخطوط بالخزانة الملكية رقم. 5696.

ج ـ في الآداب والسلـوك :

16 ـ مقنع المحتاج في آداب الازواج ، سفر ضخم يوجد مخطوطـا بخزانة الرباط العامة رقم 1026 ك وتوجد نسخ منـه بالخزانـة الملكية بالرباط تحت الارقـام التالية :

449ـ4659 ـ 3100 بالاضافة الى نسخ كثيرة توجد لدى الخواص ..

17 ـ مختصر مقنع المحتاج أو آداب الزواج وتربية الولدان طبع على الحجر ، وتوجد منه نسختان خطيتان بمكتبة تطوان تحت الرقمين : 593 654 كما توجد منه نسخة بمكتبة مدريد الوطنية تحت رقم 5169 .

18 ـ رسالة التودد والتحابب أو آداب الصحبة مخطوط م. ع. تطوان رقم 826 .

19 ـ رسالة في أنواع البدع المستحدثة في الولائم .

20 ـ تبصرة الطماع وتذكرة السماع : منظومة طويلة ضمن معظمها كتابه مقنع المحتاج .

21 ـ كتاب في جملة من ادعية الاستخارة (مقنع الحتاج ص : 61) .

5 ـ تـاريـخـيـات :

22 ـ التاريخ والنسب : نسبه له استاذنا الجليل المحقق سعيد أعراب في بحث له عنه نشر بجريدة الميثاق (السنة 3 عدد : 49) .. ويذكر ابن رحمون في كتابه : (الانساب) أن ابن عرضون له كتاب في التاريخ يقرن بتاريخ ابن خلدون وابن حزم والمقري (ص : 65 مخطوط خاص) .

23 ـ تقييد في النسب : ذكره الحوات في ثمرة أنسي ص 53 وورد

(46) ابن عرضون الكبير ص : 233 .

النقل عنه في نزهه الحادي ص 5 ط. ف. وفي فتح العليم الخبير للريسوني، والمعيار الجديد للوزاني ص : 46 ـ 47 من الجزء 11 ...

24 ـ مناقب موسى بن نصير ، وأخبار سكان شفشاون (وثيقة خاصة).

هـ ـ في الثقافة العامة :

25 ـ منظومة في تسفير . الكتب أورد بعض أبيات منها السفياني في كتابه : صناعة تسفير الكتب وحل الذهب ط باريس 1925 .. الى غير ذلك من الكتب التي ألفها هذا العالم الجليل . ومن هذا الانتاج الذي وصلنا نستخلص أشياء تجعلنا نكبر هذا الرجل ونقدره منها :

1 ـ ان هذا الرجل لم يكن متفرغا للتأليف ، بل كان يشغل منصب القضاء وغيره ولاشك أنه لو تفرغ للتأليف لكان انتاجه أغزر .

2 ـ ان هذا الرجل لم يعمر طويلا ، ولاريب انه لو مد في عمره لانتج أكثر .

3 ـ لا يفتخر ابن عرضون بانتاجه الذي دونه وجمعه في تآليفه ، بل يفتخر بفتاويه المبثوثة في كتب الفقه والنوازل التي دونت بعده ، وما خلفه من تقاييد ومسودات لم يمهله القدر حتى يجمعها ويدونها في كتاب ...

مكانته العلمية :

الذي يطالع بعض كتب ابن عرضون يجد شخصيته العلمية ناتئة كل النتوء وقد تبين لنا من خلال استعراضنا لدراسته واسماء شيوخه والكتب التي الفها انه كان جامعا لعلوم عصره ، متقننا في منقولها ومعقولها محققا في أصولها وفروعها ، فهو المحدث ، وهو الصوفي ـ وهو الفقيه ، وهو المربي والمؤرخ النسابة ... وباختصار ، فان ابن عرضون كان في ميدان الثقافة والفكر علما شامخا ، أثار انتباه علماء عصره ، لما توافر عليه من ثقافة موسوعية ، ولم يكن فقيها عاديا يساير المعلومات السائدة ، لدى علماء عصره ، ويقبلها كمسلمات ، يأخذ ولا يعطي ، ويتأثر ولا يؤثر ، بل كان يجادل كبار العلماء ويناقش آراءهم وأقوالهم ، وكان يميل الى الاجتهاد والاستقلال في الرأي ، كما كان قادرا على ترجيح الاراء ،

واستنباط الاحكام ، وفهم النصوص بعقل متفتح مدرك لاسرار الشريعة ، والغوص في أصولها ، ومن ثم رأيناه يثور على الجمود ، ويهاجم التحجر المذهبي ، والانغلاق الفكري ، فأدلى بآراء فقهيه جريئة ، استطاع أن يتحدى الفكر السائد لدى مفكري عصره ، متمشيا مع روح الشريعة الاسلامية دون أن يهمل العرف والعادات التي لا تمس جوهر الدين ، ولا العقيدة ، فابتعد احيانا عن المشهور ، وقضى بالشاذ وشهره ، ورجح ما ثبت دليله من الاقوال ، ولم يتشبث بالمذهب المالكي عندما كان يقتنع برأي مخالف يكون أقرب الى الحق والصواب ، وقد افتى بخلاف مذهب مالك في مسائل (47) .

والحق أنه كان من أكثر أعلام عصره معرفة واطلاعا على العلوم التي كانت رائجة آنذاك ، ونلمح ذلك من خلال المصادر التي كان يستقي منها معلوماته ويستشهد بها في مؤلفاته .

آراؤه : نعرف أن الثقافة في العصر السعدي بدأت في الانتعاش ، بعدما أصابها فتور وتوقف في العصر الوطاسي ، الا أن عصر السعديين ـ مع هذا الانتعاش ـ كان عصر جمود لا في المغرب وحده ، ولكن في باقي أنحاء العالم الاسلامي وعصر كهذا لا يمكننا أن ننتظر منه الكثير ، نتيجة للركود العام الذي أصاب الحياة الفكرية ، فقد أصبح عالم هذا العصر يقف عندما انتهى اليه سابقوه ، يكتفي بما قالوه ، ويقبله على علاته ، لا يعمل فكره ، ويبحث لنفسه عن الخروج من التقليد الى التطور والتجديد ، فان أظهر براعة ففي الاختصار والتعمق فيه ، مما ادى بالعلوم الى أن تصبح في حالة من الغموض والابهام ، أشبه ما تكون بالطلاسم ، فكثرت الحواشي والتعليقات ، هي اقرب الى الابهام منها الى الايضاح ، وكان هم العلماء أن يقفوا مع النص ، لا يخرجون عن ظاهره ، متمسكين بما ورد في المدونة، ومختصر خليل ، وتحفة ابن عاصم ، والخارج عنها يعتبر مارقا لا تتقبل فتواه ، ولا ينفذ حكمه . وهذا الانغلاق في الثقافة والتحجر على الفكر ،

(47) ابن عرضون الكبير ص 172 .

أدى ببعض المتنورين الى ان يثوروا على هذه الظاهرة يلتمسون الطريق لانفسهم ، كي ينطلقوا بأفكارهم ، معللين الاشياء ، مقلبين الامور على وجوهها ، ليسايروا العصر وما يحمله من تطورات ، وما يجد من مشاكل وأحداث ، تلزم العالم بان يقيس الاحكام على نظائرها ، ومن هؤلاء الذين منحهم الله قدرة العقل ، وحدة الذاكرة : ابن عرضون ، فلم ينفض يده من النص ، ولم ينسلخ من المذهب ، ولكنه كان يعرف كيف يقارن ، وكيف يراعي الاصلح ، متمشيا مع الشريعة ، دون ان يهمل عرفا أو عادة ، وقد صرح بنظريته متحديا هؤلاء الذين يحاولون تضييق ما هو واسع حيث يقول : « ... ولم يزل اهل الفتوى والقضاء ، يختارون الفتوى بقول شاذ ويحكمون به لدليل ظهر لهم في ترجيحه ، وقد خالف اهل الاندلس مالكا وعملوا فيها بأقوال مخالفة ، وجرى بذلك العمل عندهم ، واستمر عليه الى الآن القضاة وجرى به العمل من عدم اثبات الخلطة ، ومسائل كثيرة جرى فيها العمل بخلاف المشهور وهي مدونة في كتب المتأخرين يعرفها من له مطالعة بالعلم (48) .. كما يصرح ايضا : « فلو لم يكن نص لعماء المذهب المالكي في تحسيم هذه المسألة (يقصد تأبيد تحريم الهاربة) وتحسيم مادتها ووجدنا قولا خارجا يقتضي تحسيم مادتها لتعين علينا ان نرتكبه49 فهو في سبيل تحقيق المصلحة لايرى مانعا من الخروج عن المذهب ، وقد خالفه بالفعل في بعض المسائل (50) .

<u>مناصبه</u> : بعد ان فرغ ابن عرضون من حياة الدرس والتحصيل ، وانتهى من الطواف والرحلة سعيا وراء المعرفة والتثقيف ، والتي استوجبت منه ان يتنقل بين مناطق عدة لطلب العلم ، ولقاء الشيوخ ، رجع الى مسقط رأسه بقصد الاستقرار ، والحصول على منصب يتلاءم وثقافته الواسعة ، ويرضى طموحه الكبير ...

---

(48) نوازل العلمي 1/ ص 5 ـ 6 ـ 7 ط • ف •

(49) المصدر

(50) ابن عرضون الكبير ص 172 وما بعدها •

وهكذا رأيناه يتقلد منصب القضاء ، وهو منصب طالما هفت اليه نفوس العلماء ، نظرا لما كانت توفره لصاحبها من المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها القاضي في المجتمع المغربي ..

ولانعرف بالضبط متى تولى ابن عرضون القضاء بشفشاون ونواحيها، ولم يوضح القاضي ابو عبد الله مخشان الزجلي القلعي المدة التي قضاها في منصبه هذا ، ولكنه قال : ان ولايته هو واخوه ابو عبد الله محمد استمرت مايقرب من ثلاثين سنة (51) .

ومن المرجح ان يكون تولى القضاء على رأس الاربعين دن عمره ، وفي كلام استاذنا الفاضل سعيد اعراب مايفيد ذلك (52) .

كما لانعرف بالضبط كم دامت ولايته على المدينة ، لكننا نستطيع القول ـ استنادا الى بعض النصوص ـ ان المدة التي امضاها في القضاء حوالي عشر سنوات (53) .

وكيفما كان الحال ، فان ابن عرضون تولى قضاء شفشاون ونواحيها مدة كان لها اثرها في حياته ، وطبعت عصره بطابع خاص ...

والمعروف ان أهم مايراعى في اختيار القاضي غزارة العلم والتقوى والورع والعدل ، وهذا بالفعل ماكان يتوفر عليه ابن عرضون فقد كان مثال القاضي العادل والحاكم النزيه ، والعاقل المتدبر ...

ونظرا لعدله وصلاحه ، وشدته في تطبيق احكام الشريعة ، فقداتسع نفوذه الى جهات نائية ، ورقي الى منصب قاضي القضاة ، ولم يكن عمل ابن عرضون مقصورا على الفصل بين الخصوم فقط ، بل جمع الى ذلك الاشراف على الصلاة أيام الجمع والاعياد ..

وتعتبر الفترة التي قضاها ابن عرضون في القضاء من اخصب الفترات التي دون فيها مؤلفاته ، وقد ادخل ابن عرضون بعض الاصلاح على الجهاز

---

(51) ملحق حوالة الجامع الاعظم بشفشاون ج 2 ص 146 .

(52) الميثاق (جريدة) السنة 3 عدد : 49 .

(53) ابن عرضون الكبير ص 197 .

القضائي ، فحارب التلاعب الصادر عن بعض قضاة عصره ، ومن سبقوه، وصحح بعض الاخطاء التي صدرت منهم ، كما كان يحمل على العـــدول (الموثقين) ويتهمهم بالتساهل في كتابة الوثائق منبها اياهم علـى ضبط الاحكام ، حاثا اياهم على الثبات على الحق ، والحكم بما يساير الشريعة الاسلامية ، والتمكن من فحص الحجج ، وتكييف الحكم مع القضايا ...

خطة التدريس : ماتقدم عن القضاء ، أما التدريس فلانجد أحدا تعرض لهذا الجانب من حياته ، وليس بين أيدينا نصوص تلقي أضواء كاشفـة عن حياته التدريسية ، والمواد الـتـي كان يتولى تدريسها ســوى بعض النصوص الضئيلة (54) ..

وأمـا الخطابة فمن الطبيعيا ن يتولاها بالمسجد الاعظم اذ هي مـن مهمات القاضي وعن الدعوة والارشاد ، فذلك ماصرح به هو نفسه في عديد من النصوص في بعض كتبه خاصة كتابيه : «حدائق الانوار» و «مقنـع المحتاج» وقد استعرضنا بعضا منها في غير هذا الموضع (55) ..

ماقيل في الثناء عليه :

اذا اردنا ان نعرف قيمة الرجل على حقيقتها ، ونقوم شخصيتـه وثقافته فاننا نلجأ الى ماقاله فيه العلماء الذين عاصروه ، أو أتوا بعده ، ونظرتهم اليه ، وسنرى أنهم يتفقون جميعا على تقديره والثناء عليـه ، وأقوالهم في هذا الباب كثيرة ، وكلها صادرة عن اشخاص لهم درايـة بالرجل ، واطلاع على أحواله ، ومانظنهم كانوا مبالغين ولامغالين .

فهذا شيخه القصار يصفه بالراسخ في العلم (56 .

ويقول فيه تلميذه محمد مخشان «القاضي المبرز في العدالة والفصل» (57)

---

(54) ابن عرضـون الكبيـر ص 200 ـ والحوالات الحبسية لمدينة شفشاون ملحـق ج 2 ص 146

(55) ابن عرضون الكبير ص 201 .

(56) السر الظاهر ص 2 م 16 ط . ف .

(57) الحوالات الحبسيـــة لشفشاون 2/146 .

ويقول فيه ابن أخيه أبو العباس أحمد : «وكان عمي أحمد بن الحسن ابن عرضون حجة في الاحكام على عهده» (58) . وينعته عصريه احمد ابن علي الشريف ب «القاضي الاعدل الولي الصالح الامام الحافظ» (59) ويصفه والد أبي الربيع سليمان الحوات بجنيد عصره (60) كما يصفه العلمي الحسني «بالفقيه الاجل المدرس الاكمل قاضي شفشاون وعمالتها» (61) .

ونعته ابو عبد الله محمد بن عيسى العلمي بالشيخ الامام المحصل (62)

وفيه يقول ابراهيم الجلالي في كتابه (تنبيه الصغير في الولدان) هو الفقيه الاجل القاضي الاعدل (63) في حين يقول في حقه أبو حامد الفاسي (القاضي العادل العالم المتثبت الموثوق به (64) ويقول فيه الشيخ محمد مخلوف التونسي (هو الامام العمدة ، الفاضل الفقيه الموثق القاضي العادل (65) ونقل الشريف العلمي عن الشيخ ميارة في وصفه لابن‌عرضون قوله : الامام الحجة القاضي سيدي أحمد بن عرضون (66) .

ولعل أبا عبد الله محمد الصغير الهبطي يصفه اصدق وصف اذيقول في حقه نظما :

ومنهم القاضي ابن عرضون الابر	السيد الاتقى التقي المعتبر
خلي ابي العباس أحمد الاغر	حبي الخي في صغري وفي الكبر
أرعد في قضائه وابرقا	فصيته غرب بل وشرقا (67)

---

(58) ناصر الحكام مخطوط خاص .

(59) الحوالات الحبسية لشفشاون .

(60) السر الظاهر 4 م 7 .

(61) الحوالات الحبسية لمدينة شفشاون .

(62) نوازل العلمي 50/2 .

(63) مخطوط خ . ع . بالرباط رقم 571 ك .

(64) حوالة شفشاون ملحق ج 2 ص 146 .

(65) شجرة النور ص 286 .

(66) نوازل العلمي 4/1 م 17 .

(67) المعرب الفصيح مخطوط خاص .

أما المرحوم الفقيه محمد المورير فيصفه بما يلي : «الفقيه المتبحر الكبير والعالم العلامة الشهير ، القانوني الموثق ، والقاضي المحقق ، الحكيم المغربي النبيه ، الشيخ قاضي العاصمة الراشدية الشهير ، وعالمها الكبير ، كان فقيها كبيرا ، وقاضيا نزيها ، عادلا محترما ، مبجلا من الخاصة والعامة وكان السلطان احمد المنصور السعدي يحترمه كثيرا ، ويقدر علمه وفضله ، ويأخذ برأيه في كثير من القضايا والمشكلات (68) ويصفه الرهوني التطواني بقوله : «الفقيه الاجل البركة الاكمل (69) ... الى غير ذلك من الاوصاف التي وصفوه بها ، وقد اقتصرنا على بعضها وهي ـ كما نرى ـ اوصاف تعكس آراء الناس فيه ونظرتهم اليه ...

وفاتـــه :

تكاد تتفق جميع المصادر التي تعرضت لذكره انه توفي عام 992 هـ (70) ولم يشذ عن هذا الرأي الا الاستاذ عبد الله كنون حيث ذكر انه توفي سنة 993 هـ (71) واختلفوا في مكان وفاته على اقوال ، سنضرب عنها جميعا صفحا ، ونكتفي بترجيح ماذهب اليه شيخنا الباحث المدقق الاستاذ سعيد اعراب من أن ابن عرضون توفي ببلده (72) ويبقى علم الحقيقة بيد الله وحده ...

---

(68) الابحاث السامية 197/2 .

(69) عمدة الراوين 455/4 مخطوط خ . ع . تطوان .

(70) سلوة الانفاس 268/2 ط . ف . ـ معجم المؤلفين 199/1 ـ الابحاث السامية 198/2 ـ

(71) النبوغ 257/1 الطبعة الثانية بيروت .

(72) جريدة الميثاق السنة 3 عدد : 49 .

بقلم : الاستاذ الجيدي عمر